75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ المجلد الخامس ـ العدد الثالث ١٣٩٦ـ١٩٧٦

بغداد

في رحلات الأجانب في العهد العثماني *

بقلم

علاء موسى كاظم نورس

تحولت بغداد بعد الغزو المغولي (١٢٥٨م) من عاصمة دولة عظيمة الى مدينة اقليمية . ثم توالت عليها الغزوات والمعارك سواء اكان ذلك في العهدين الجلائري والتركماني أم الحكمين الصفوي والعثماني حين كانت تتناوب بغداد خلالها الايدي المتنازعة وتتحكم فيها القوى الطامعة ، فضلا عما اصابها في هذه العصور من كوارث واوبئة وحرائق وفيضانات ، غير ان بغداد رغم ذلك حافظت على سيادتها وبقائها كعاصمة فعلية للعراق .

ولقد زار بغداد في العهد العثماني العديد من الرحالة الاجانب فقدموا وصفا لكثير من جوانبها . فتوفرت من ذلك كله ثروة تاريخية غير يسيرة ، لها قيمتها في توضيح الحوادث التي كانت تقع في شتى الادوار التي مرت بها هذه البلاد ولا سيما في عصورها المظلمة ، على ما فيها من تحيز وتحامل في بعض الاحيان .

ولو اردنا ان نحصر الغايات والاغراض التي كان اولئك السياح المسافرون يقصدون هذه البلاد من اجلها في تلك الايام نجد انها لا تخرج عن النقاط التالية : التبشير ، التنقيبات الاثرية ، السياحة والمغامرة ، الاغراض التجارية ، التمثيل السياسي ، والانتداب لاغراض فنية او عسكرية ، هذا فضلا عن المرور عبر هذه البلاد الواقعة بين القارات وخاصة في الطريق الى الهند وايران . ولذلك فقد اورد ستيفن همسلي لونكريك في كتابه الموسوم (اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) في قائمة مراجعه عن العراق للفترة ما بين ١٥٥٣ و ١٩١٤ اسماء ثمان وتسعين رحلة وتقريرا ومقالة مسهبة ، وكلها تصف العراق واوجه الحياة فيه بطريقة او اخرى . اما اصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالي وفرنسي ، وهولندي وألماني ، وايطالي وانكليزي ، وارمني ، وهندي ، بالاضافة الى اربعة من الاتراك. غير ان القسم الكبير منهم من الانكليز(١) .

ومردّ اقدم وصف لبغداد الى الدكتور الالماني ليونهارت راوولف "Leonhart Rauwolf" ، وكان قد قدم اليها سنة ١٥٧٣ (٢) . ويسميها "Baldac" ويريد بها بغداد . وحسب ما يذكره ان مدينة بغداد تنقسم الى قسمين مثل مدينة (باتل) على نهر (راين) ولكنها لا تدانيها حسنا ولطافة ، ذلك ان شوارعها ضيقه وكثير من دورهاواهن البناء . اما حماماتها فهي اكثر رداءة من حمامات طرابلس والاسكندرية ، انها مظلمات سود حتى ابان النهار ، ولا ينفذ اليها من النور الا قليلا . وجانب المدينة الايمن مكشوف ، اما الجانب الكائن على الساحل الايسر من دجلة فقد كان محصنا بالابراج العالية والاسوار . والاماكن التي تستحق الرؤية مقر الباشا التركي والسوق الكبير ، ويسكن الباشا في القسم الشرقي من المدينة ، وله جيش قوي .

وقد كانت تجارة المجوهرات والمرجان والزمرد والزعفران والقرمز والاقمشة الحريرية والاقطية (الشراشف) التركية والاثمار رائجة في هذه الفترة.واضافة الى ذلكفانالسفنناتيها كل يوم محملة ، فتنكدس البضائع التجارية فيها ، والبضائع هذه ناتيها من جهات عدة برا وبحرا ، من الاناضول وارمينية ، وسورية والقسطنطينية ، ودمشق وحلب ، كما تحمل البضائع منها الى اماكن نائية وابعد مما ذكرنا : الى جزائر الهند وفارس وغيرهما . وابان وجود راوولف في بغداد ، في الثاني من كانون الثاني سنة ١٥٧٤ ، وصلت (٢٥) سفينة محملة بالتوابل وغيرها من النفائس جاءت كلها من جزائر الهند عن طريق هرمز Ormutz (٣) .

---

* مختارات مما كتبه الرحالة عن بغداد .

(١) جيمس بيلي فريزر ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٢٤ ، ترجمة جعفر الخياط ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٦٤ ، ص٥-٦ .

(٢) سبقه في زيارة بغداد السائح « فدريكو » "Caesar Federigo" وهو احد تجار البندقية ، اذ زارها سنة ١٥٦٣ اي بعد مرور ثلاثين عاما على فتحها من قبل السلطان سليمان القانوني . وكان وصفه لها غير دقيق .

(٣) بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، ترجمه وجمعه عن الالمانية سعاد هادي العمري ، بغداد ١٩٥٤ ، ص ص ١٦-١٩ ، سروالبس بج ، رحلاتالى العراق ، جـ١ ، ترجمة فؤاد جميل ، ط١ ، بغداد ١٩٦٦، ص ص ٥٢-٥٦ .

ويقـــول (بترو دلافاله) (٤)"Pietro della Valle" السائح الايطالي الذي شاهد بغداد سنة ١٦١٦ (٥) ، ان بالدالك Baldac او باوداس Baudas (بغداد) مدينة راكية الجانب الغربي من نهر دجلة ، وان شطرها الاكبر على الجانب الشرقي ، وهو مسور . وفيها جوامع كثيرة ، واسواق حسنة البناء ، مغطاة ، يباع فيها كثير من المنسوجات الحريرية . وفيها بساتين واسعة يكثر فيها النخل والليمون والرمان وزهر الافيون ... ، ويجلب الرقي والبطيخ من الموصل على ظهور الارماث ، وهي كثيرة ، ويسمى الرمث « كلك » (٦) . ويتصل جانبا المدينـــة بجسر من قوارب عددها ٢٩ ،ويسكن الباشا في قلعة قرب سور المدينة ، على الجانب الشرقي(٧) .

وزار جان باتيست تافرنييه (٨)

"Jean Baptiste Tavernier"

بغداد في سنة ١٦٣٢ ومكث فيها خمسة ايام ، ثم زارها ثانية ، بعد عشرين سنة ، (١٦٥٢) ، وكان ثواؤه فيها عشرين يوما . وهو يقول ان ابواب مدينة بغداد تفتح في الساعة السادســـة صباحا . وان مساحة المدينة ١٥٠٠ خطوة طولا ، و٨٠٠ خطوة عرضا ، ومحيطها ثلاثة اميال واسوارها مبنية بالآجر وتعلوها بروج مشيدة عظيمة ، نصب عليها ستون مدفعا . ولكن ليـــس بين هذه المدافع ما يحمل اكثر من خمس او ست قنابر . ويكتنف السور خندق عريض ، عمقه نحو خمس او ست قامـــات .

وللمدينة اربعة ابواب ، ثلاثة منها في جهة البر ، وواحد مطل على النهر ، ومنه يعبر النهر على جسر ذي ثلاثة وثلاثين قاربا ، بين القارب والآخر مسافة تبلغ عرض قارب واحد . والقلعة في داخل المدينة، بالقرب من الباب المسمى بباب المعظم (el-Maazam) وهو في شمالي المدينة . وفي القلعة حامية قوامهـــا للثمانـــة انكشاري يراسهم آغا . ويحكم المدينة باشا يكون عادة برتبة وزير . وفي بغداد خمسة جوامع ، وعشر خانات بناؤها رديء ما خلا اثنين منها ينال فيهما المسافرون قسطا من الراحة . وبالاجمال ، ان المدينة ليست على حظ من جودة البناء . ويقدم تافرنيه وصفا ممتعا لاحتفالات سكان المدينة . ويقول ان عـــدد السكان خمسة عشر الف نسمة (٩) .

ومعلومات اخرى عن بغداد ، على ما كانت عليه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، يوردها (كارستن نيبور) (١٠) . "Carsten Niebuhr" وقد شاهد المدينة سنة ١٧٦٦ فكان خير من وصفها ، وقد ايد الرحالة الذين جاءوا بعـــده صحة ما ذكره . ومما جاء في رحلته ان دجلة الذي يشق قسمي المدينة الشرقي (الرصافة) ، والغربي (الكرخ) يبلغ عرضه عند المدينة بين (٦٠٠ـ٦٢٠) قدما ، وعليه جسر ركيك من الزوارق وعدد زوارقه اربعة وثلاثون زورقا صغيرا ، مربوطة بعضها الى بعض بثلاث سلاسل متينة . وان القسم المكتـــظ بالسكان هو القسم الشرقي وفيه سراي الباشا واسواق المدينة المهمة . وتتحكم في مداخل هذا القسم اربعة ابواب ، ســـمي الباب الجنوبي منها (قرا نلغ قابي) (١١) ، اما الابواب الاخرى فقد سماها نيبور باسمائها المعروفة بها وهي باب المعظم في الجهة الشمالية ـ الغربية من المدينة ، والباب الوسطاني في الجهة الشمالية ـ الشرقية ، وباب الطلسم ، او باب الحلبة . وبنى الباب الاخير الخليفة الناصر لدين الله (٦١٨هـ = ١٢٢١م)، وسده السلطان مراد الرابع اثر دخوله بغداد فاتحا (١٦٣٨م) ولم يفتح منذ ذلك التاريخ .

وفي الجهة الغربية من المدينة قلعة صغيرة تسمى «ايچ‌قلعه» اي القلعة الداخلية ، وتستعمل الآن مستودعا لخزن البارود ، ويقيم فيها الجنود الينكچريه . ويقع السراي اي قصر الباشا

---

(٤) من اشهر الرحالة الاوربيين الذين طوفوا في الشرق في بداية القرن السابع عشر ، وقد استغرقت سياحته خمسة اعوام زار خلالها بابل وآشور واور وغيرها .
سروالبس بج ، المصدر السابق جـ١ ، هامش ص٥٧ .

(٥) اي قبيل احتلال الفرس لها سنة ١٦٢٣م .

(٦) يقتبس سروالبس بج وصف « الكلك » من الرحالة بورتر الذي زار بغداد سنة ١٨١٨ ، والذي وصفه : « بناءه صالح لتحقيق الغاية منه . انه ذو قاعدة من جلدين شجرتين كبيرتين متقاطعتين ، توضع عليها حزم من اغصان الصفصاف ، وتربط بقوة الى ساق في الاسفل . وتربط تحته جلود خراف منفوخة بالهواء وترتب بحيث يمكن تجديد نفخها على وفق الحاجة ، وتستند اليها قاعدة الرمث ، ثم يضفر الكل ، ويربط المضفور ربطا جيدا ، وهناك منصة من المواد نفسها تحفظ الرتاب والبضاعة من الابتلال بالماء . والرمث يدفع بمجدافين كبيرين ، كائنين على كل من جانبيه ، وهناك مجداف آخر يقـوم بواجب الدفة . وعندما تصل الارماث غايتها وتفرغ حمولتها تباع جميع موادها ، فيما خلا الجلود ، اذ تفرغ هذه من الهواء وتحمل على ظهور الابل ، وتعاد مع اصحابها براً والى الميناء النهري الذي انحدرت منه اصلا » .
(رحلات الى العراق ، جـ١ ، هامش ص ٥٨) .

(٧) بغداد كما وصفها السواح الاجـــانب ، ص ص ١٩ـ٢٠ ، سروالبس بج ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ص ٥٧ـ٥٨ .

(٨) نبيل فرنسي طبعت رحلته سنة ١٦٧٦ ، ثم جدد طبعها سنة ١٧١٢ . وعنوانها « الرحلات الست في تركية وآسية » وقد نقلت بكاملها الى الانكليزية ، وطبعت في لندن سنة ١٦٧٨ . وفي سنة ١٩٤٤ قام بشير فرنسيس وكوركيس عواد بترجمة ما كتبه هذا الرحالة عن العراق ، الى العربية وصدرت الترجمة العربية بعنوان « العراق في القـــرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه » .

(٩) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه ، نقله الى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٤٤ ، ص ص ٧٧ـ٧٩ ، ٨٢ـ٨٦ ، رحلات الى العراق ، جـ١ ، ص ص٥٩ـ٦٠ .

(١٠) رحالة الماني الاصل ، واحد خمسة رجال تالفت منهم البعثة الملكية الدنماركية التي نيط بها اكتشاف الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها عام ١٧٦٠ . وقد عرف عن نيبور دقته في جمع المعلومات التاريخية والدرايـــة في استخلاصها من الثقاة والرواة عن الاماكن التي لم يستطع القيام بزيارتها بنفسه .
زار نيبور بلاد الشرق الادنى وجزيرة العرب ، ومن البصرة بدأ رحلته في العراق ، فزار النجف والحلة وكربلاء وبغداد وكركوك واربيل والموصل . والجدير بالذكر ان نيبور رسم خريطة للخليج العربي ظلت هي افضل ما رسم للخليج حتى نهاية القرن الثامن عشر وهذه الخريطـــة لها اهمية تاريخية اذ انها تبين منازل القبائل العربيـــة المختلفة على شواطىء الخليج .

(١١) ومعناها باب الظلمات ، ويسمى كذلك باب كلواذى واطلق عليه مؤخرا « الباب الشرقي » .

بازاء القلعة على نهر دجلة ، وهو وسيع جدا ويحتوي على مرافق كثيرة ولكن معظمها متهدم .

وفي بغداد كثير من التكايا اي ربط لمختلف الطـــرائق الصوفية « الدراويشية » وهي القادرية والبكتاشية والمولوية والرفاعية والنقشبندية والقلندرية والشاكرية . والتكيةالخاصة باصحاب الطريقة الاخيرة اي الشاكرية عبارة عن ماوى لفقراء الهنود المسلمين الذين يقدمون الى هذا القطر حجاجا .

واشتهرت بغداد كعاصمة اسلامية بكثرة مساجدها ففيها ـ على ما يروي نيبور ـ عشرون مسجدا (١٢) تعلوها المنائر ، وهناك مساجد لا منائر لها ، وفيها اثنانوعشرونخانا ، والمسكون منها ستة او سبعة ، يسكنها تجار كبار ، والخانات الاخـرى صغيرة ، وفي بغداد عدة حمامات عامة ، ومستشفى ذو غـرف قذرة ، مظلمة يحجر فيها جميع المجلومين والمصابين بالامراض المعدية ـ السارية ـ .

والعلوم اليوم لا ترى من يقيم لها وزنا فهي بالفعـل ممـا كانت عليه في عهود الخلفاء من لقائها كل رعاية وعناية ، وفي حالة اسوا مما في مصر واليمن . فقد وجدت في بغداد عددا قليلا من الناس ممن يعرفون القراءة والكتابة ، وفي القاهرة مكان يشتري منه المسلمون كتبا عتيقة وليس في بغداد شيء من هذا ، فـاذا ما اراد احد ان يقتني كتبا بغير ان يكلف نفسه عناء الاستنساخ او تكليف احد به . وجب عليه ان يتربص موت بعض الناس من ذوي الكتب ، وعندها تباع في السوق كما تباع الالبســة القديمة وينادي عليها الدلالون للمزايدة على اثمانها : وكل اوربي يريد ان يشتري كتبا مخطوطة عربية كانت او تركية او فارسية لا يجد لذلك مجالا في غير استانبول .

ويعطي نيبور وصفا ممتعا لجوانب اخرى من بغـداد ، ويتحدث عن ولاية حسن باشا(١٣) وابنه احمد باشا(١٤) لبغداد وما حدث في عهدهما ولا سيما حصار نادر شاه (١٥) لبغـداد . ويقدم معلومات مهمة عن ســليمان باشـــا (ابو ليلة) (١٦) وهو اول من تولى الحكم في العراق من المماليك . ويصف لنا شكل حكومة بغداد وقوتها العسكرية (١٧) وهذا ما سوف نتطرق اليه فيما بعـد .

(١٢) يقدر جيمس بيلي فريزر ـ السائح البريطاني الذي زار بغداد في سنة ١٨٣٤ ـ عدد المساجد باكثر من مائة . رحلة فريزر الى بغداد ، ترجمة جعفر الخياط ، ص ٨١ .

(١٣) تولى باشوية بغداد سنة ١٧٠٤ حتى وفاته سنة ١٧٢٣ . وقد اشتهر باسم « جديد حسن باشا » ولا تزال في بغداد محلة تعرف بهذا الاسم،ويقال انه من اصل أموي،وهو انما لقب بـ « الجديد » لتمييزه عن سمي كان قد حكم العراق من قبل .

(١٤) تولى باشوية بغداد سنة ١٧٢٣ حتى وفاته سنة ١٧٤٧ . خير مصدر عنه وعن ابيه : مخطوطة حديقة الزوراء في سيرة الوزراء لعبدالرحمن السويدي ، ودوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، لرسول الكركوكلي ، ترجمة موسى كاظم نورس .

(١٥) شاه ايران (١٧٣٦–١٧٤٧) .

(١٦) لقب لشجاعته ايضا بـ (دواس الليل) و (ابو سمرة) و (سليمان الاسد) .

(١٧) رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الالمانية محمود حسين الامـين ، بغـداد ١٩٦٥ ، ص ص ٢٩–٣٥ ، ٤٤–٤٥ ، ٥٤–٧١ ، بغداد في رحلةنيبور، ترجمها من النسخة الفرنسية مصطفى جواد ، مجلة سومر ، الجزء الاول والثاني (المجلد العشرون) ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ص ٤٩–٦٨ .

وفي سنة ١٧٧٥ وصف بغداد الرحالةالانكليزيبارسونز(١٨) "Parsons" ومما جاء في وصفه ، ان مقر الباشا يقع قرب النهاية الغربية من المدينة ، وعلى بعد نصف ميل تقريبا يوجد الجامع الكبير حيث يذهب اليه الباشا صباح كل جمعة يرافقه عدد كبير من الموظفين عسكريين ومدنيين . وهنالك ايضا بالقرب من مقر الباشا مدرسة عسكرية ودار ضـرب النقود ودار الاسلحـــة .

وشوارع بغداد ضيقة غير مبلطة ، اما اسواقها فكثيرة والضخمة منها مسقفة (١٩) . وهي جيدة التموين ومزدحمـة وبعبارة اخرى ان بغداد « السوق الكبير لمنتجات الهند وايران والقسطنطينية وحلب ودمشق ، وباختصار انها اكبر مخزن في الشـــرق » .

وتنتشر المقاهي في المدينة بصورة كبيرة بحيثاسترعتانتباه بارسونز (٢٠) فاخذ يسال عن عددها فاخبر بانهـا كلها مسجلة في سجلات الحكومة لانها تدفع ضريبة سنوية للباشا ، وان عددها (٩٥٥) مقهى ، وهنالك (٤٩٠) طلبا لفتح مقاه اخرى . والجدير بالذكر انه بجوار هذه المقاهي المخازن المليئة بالسلعالعديدة(٢١).

وزار بغداد سنة ١٧٩٧ الرحالة الانكليزي جاكسـون(٢٢) ومما جاء في وصفه لها ، انها تقع على الضفة الشرقية من نهر دجلة ، وهي مدينة واسعة مكتظة بالسكان تمتد على ضفاف النهر حوالي ثلاثة اميال ، اما طول اسوارها من حافة النهر فيبلغ زهاء الميلين . وفيها عدة مبان عامة كالجوامع والمساجد والحمامات . وتوجد فيها سوق واسعة مزودة بمختلف انـواع السـلع ، ولكن الاسعار فيها اعلى من اسواق البصـرة بصفة عامـــة .

واذ نتجاوز السور في الجهة الغربية من المدينة تبـــدو الارض صحراء قاحلة لا اثر للنبات فيها ابدا عدا ضفاف النهر . اما في شمال المدينة فاننا نجد ذات العراء فلا ماء ولا زرع . وتمتد على ضفة النهر من ناحية الشرق بساتين فخمة الى مسافة اربعة اميال وتقوم هناك دور كثيرة مملوءة بالسكان .

على ان المدينة تزود بالفواكه والخضراوات من الجـانب

(١٨) كان موجودا في البصرة سنة ١٧٧٤–١٧٧٥ في بداية حصار الايرانيين لها ، وزار بغداد : وقد ذكر في كتابـــه : 'Travels in Asia and Africa., (London 1808)' الكثير عن العمليات العسكرية الايرانية ضد البصرة ، كما اعطى وصفا مفصلا عن استحكامات المدينة الدفاعية ، وقد كان بارسونز بحارا في بداية حياته .

(١٩) وجدها اريليفيه الذي زار بغداد ١٧٩٦–١٧٩٧ اكثر تكاملا .

(٢٠) استرعت انتباه بورتر ايضا الرحالة الانكليزي الذي زار بغداد سنة ١٨١٨ .

(٢١) Parsons, A., Travels in Asia and Africa., (London 1808). pp. 125-131

(٢٢) قام بترجمة هذه الرحلة الاستاذ سليم طه التكريتي بعنوان « مشاهدات بريطاني عن العراق » .

المقابل للنهر حيث تكثر البساتين والمزارع . وللباشا وبعض الشخصيات البارزة منازل ريفية في المناطق المجاورة لبغداد .

ويتحدث جاكسون عن احمد اغا(٢٣) كتخدا باشا بغداد سليمان الكبير (١٧٨٠-١٨٠٢) ، وكيف اغتيل،وعن علي اغا(٢٤) الذي خلفه في منصبه وكيف انه كان لايعرف القراءةوالكتابة(٢٥)!

وفي ٢٧ كانون الثاني ١٨٠٣ وصل بغداد السائح الهندي مرزا ابو طالب (٢٦) ومما جاء في وصفه لها ، انها قائمة على ضفتي دجلة وهي مدينتان ويقصد بها (جانبان) وتتميزان باسم بغداد الحديثة وبغداد القديمة ،-والمدينة الاولى في الجهةالشرقية وفيها يقيم الباشا وكبار الموظفين ، والثانية في الجهة الغربية من النهر ، وفيها منازل جميلة ، وهاتان المدينتان ، ومحيطهما زهاء ثمانية اميال وهما محصنتان باسوار تحيط بهما خنادق واسعة وعميقة تتخذ مزارع في ايام السلم ولكنهاوعند حلول اقل خطر تملا ماءا من نهر دجلة بسهولة ... وتحصينات المدينة القديمة اقامها سليمان باشا الكبير ليحفظهـا من غـارات الوهابيين (٢٧) .

ويتحدث دوبريه(٢٨) "Dupre" الرحالة الفرنسي الذي زار بغداد سنة ١٨٠٨ وسكن فيها ردحا من الزمن ، عن الحركة التجارية فيها اذ يقول ان تصدير المواد غير الضرورية للاستهلاك المحلي من بغداد يرتفع سنويا بمعدل (٣٥٠) الف قرش ، وان مجيء الزوار الى العتبات المقدسة سنويا يزيد من نشاط الحركة التجارية في العراق ، ويقدر عددهم من ١٥-٢٠ الفا وقد يصل في بعض الاحيان الى ٣٠ الفا . اما الضرائب على التجارة التي يقوم بها الاهالي والدول التي لم تكن موقعة على معاهدات مع الباب العالي فكانت ٥ر٧ وهذه هي القيمة الرسمية للضريبة ، وكانت الضريبة تقدر حسب البالة او الصندوق او حسب الوزن ، وهذه تسمى سقط ، او حسب الاطوال وهذه تسمى صاغ ، وكان يستقطع قرش عن كل بالة كرسم . وكانت هناك بعض البضائع المعفاة من الضريبة مثل النقد والذهب والفضة . وقد قدرت الرسوم على التجارة في بغداد بمليون قرش وفي البصرة كانت تقدر بمليون ونصف المليـون .

ويتحدث دوبريه عن مصانع بغداد فيذكر انها ليس لها قيمة كبيرة . وهي تقوم بصنع بعض الانسجة وبعض المناديل الحريرية . ولكن بغداد تعتبر مستودع للبضائع الاوربيةوالتركية والعربية والفارسية وكذلك البضائع التي تصل من الهند عن طريق الخليج العربي والبصرة . وبالامكان اعطاء قائمة باسماء مختلف المواد التي تصدرها وتستوردها بغداد وكذلك قائمة بالمنتجات الصناعية . وبالرغم من الاضطهاد المستمر للشعب من قبل الحكام ، فان تجارة هذه المدينة نشطة . وهناك عدد كبير من التجار الاغنياء جدا . وتقوم بغداد بتبادل سلعها مع حلب ودمشق والاستانة واصفهان وتبريز وارضروم والمدن الاخرى . وبعد ان تدخر بغداد ما هو ضروري للاستهلاك المحلي ، يصدر التجار الفائض من بضائعهم الى الهند عن طريق البصرة . وتحمل على السفن التي تنزل في دجلة ، وقد تكون هذه البواخر الذاهبة الى بومبي او البنغال انكليزية او عربية . ويتم نقل البضائع ما بين بغداد والبصرة بواسطة سفن يطلق عليهـا تكنـه "tekné" وهي تصنع من خشب التوت او جذوع النخيل ثم تغطى بطبقة من الزفت وتكون هذه السفن طـويلة وعريضة وتسع لـ (٢٠٠٠) قنطار ، "centner" وفيها غرفتين صغيرتين كما ويوجد في وسط هذه السفن صارية تخترقه عارضة طويلة يربط بها شراع مربع يستخدمه الملاحون عند هبوب الرياح بصـورة عكسية ، وقد يلزمون بسحب السـفن الـى الجانب بسبب التواءات النهر ، ويستعملون مجاذيفهم التي غالبا ما يكون عددها ستة ، وتستغرق الرحلة النهرية من البصرة الى بغداد اكثر من شهرين .

وهذه قائمة بأسماء البضائع الاجنبية في اسواق بغـداد .

البضـائع الاوربيـة

الشراشف	القصدير
المخمل السادة	الزمرد
المخمل المطرز	الالماس
Moire	الحرير الطبيعي
التفتـا	الزئبق
القديفـه	الزرنيخ
النسـيج الملون	الارجوان
الساعات	المينـا
الكرستال (بلور)	ماء الزئبق

(٢٣) لا يزال اسمه مخلدا في بغداد بالجامع الاحمدي الكبير في الميدان ، وقد كان قد أمر ببنائه وصرف عليه مبالغ عظيمة. ولما قتل قام باتمام بنائه اخوه عبدالله بك فاتمه سنة ١٧٩٦م .
انظـر :
محمود شكري الالوسي ، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، بغداد ١٣٤٦هـ ، ص‌ص ٧٣-٧٤ .

(٢٤) في الاصل فتى من الارقاء الجورجيين ، استخـدم فـي « الحرم » ومن ثم اعطى منصبا مدهشا في احدىالمؤسسات العسكرية . وما ان علم بان ابنة الباشا تود الزواج منه حتى استطاع ان يؤثر على بعض الموظفينالعسكريينوالمدنيين وان يقتل الكتخدا وهو عائد من ديوانه الرسمي ، ويقدر جاكسون عمر علي اغا بأقل من ثلاثين عاما ويصفه بانه جميل ظريف ذو شخصية جذابة جدا .

(٢٥) جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، تعريب سليم طه التكريتي ، بغداد ، بدون تـاريخ ، ص‌ص ٧٢-٧٩ .

(٢٦) كتب النسخة الاصلية من رحلته والموسومة « رحلات في آسيه واوربه وافريقية في ١٧٩٩-١٨٠٣ » (لندن ١٨١٠)، باللغة الفارسية . وقد ترجمت الى الفرنسية ، وقام بنقلها الى العربية الدكتور مصطفى جواد وصدرت في بغداد عام ١٩٧٠ بعنوان « رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربا سنة ١٢١٣هـ - ١٧٩٩م » وقد وصف مرزا ابو طالب خان فيما وصفه ماردين،الموصل،كركوك،بغداد،العتباتالمقدسة، البصرة . والجدير بالذكر انه كان قد وصل كربلاء بعـد سبعة اشهر من هجوم الوهابيين عليها (في يوم الغدير) الثامن عشر من ذي الحجة سنة ١٢١٦هـ الموافق للثاني والعشرين من نيسان سنة ١٨٠٢م ، حينما كان معظـم سكانها يؤدون الزيارة في النجف .

(٢٧) رحلة ابي طالب خان ، ص‌ص ٣٦٦-٣٦٧ .

(٢٨) كتب عن ماردين - نصيبين - الجزيرة - الموصل - كركوك - بغداد - ايران . والجدير بالذكر انه حظي بمقابلة والي بغداد سليمان باشا الصغير ثلاث مرات .

البنادق	معدات ولوازم طبية
المسدسات	الابر
المرجان	المينات (قاعدة الساعة)
الحديد	الفرو باختلاف انواعه
الفولاذ	

البضائع التركية

القماش صوفية	الدهون
الشاش بألوان	الصابون
Aladja / Beyaglon (القماش حريرية وقطنيا)	الزيوت
	البنادق
	النحاس
القماش مطرزة	الاقمشة
الحرير	مسدسات

البضائع العربية

الجمال	القهوة
الخيول	العنبر الرمادي
الغنم	

بضائع الخليج العربي

الجواهر	البضائع الايرانية
الاسماك المملحة	

البضائع الايرانية

شالات كشمير	Garanu
زوالي كرمان وكاشان	Opponax
القماش يزد الحريرية	النفط الابيض
الانسجة الملونة	الفرو
الاقمشة الملونة	الجلود
القطن	الاثمار المجففة
الصوف	التبوغ
	المطاط

البضائع الهندية

الشال	النيلج
الاقمشة والشال المطرز	السكر
الاقمشة السادة	التوابل
الاقمشة الملونة	الكبريت
النسيج الملون	الكركم
القماش حريرية وقطنية	الملح الامونياكي
خيوط القطن	خشب الصندل
الخزف الصيني	مختلف التوابل الاخرى

البضائع المتبادلة

منتوجات مقاطعة(*) بغداد

الرز	الجمال
الحنطة	الجلود
الشعير	جلود الاغنام والجاموس
القطن	النفط الاسود
الحرير	الصودا
العسل	الملح الامونياكي
التبغ	الملح
العفص	البورق
الحنه	القطران
الصوف	ملح البارود
الخيول	

المواد المصنوعة في بغداد

الشال العادي وبقال سكري	المناديل الحريرية
الشال المطبوع	التافتا
الشال المطرز	الشال
الاقمشة الحريرية والقطنية	
الانسجة الملونة	الكجه (نوع من السجاد)
الانسجة المخططة	السجاد العادي
الخيوط القطنية	العبي *
المناديل (الفوط)	الزجاجيات
البوشي (نوع من المناديل لتتحجب المراة به)	الصابون الذي يصنع من الشحم

قائمة بالاوزان والمقاييس والنقود البغدادية

٤ حبات = قيراط	سبعة ونصف وزنة = قنطار
١٦ حبه = درهم	اثنان وثلثين قنطار = اطفار
١٠٠ درهم = وقيه	الطفار = ٤٨٠ حقه او (١٢)
٤ وقيات = حقة	قنطار او (٥٠) باون
٢ رطل = من او بتمن	و (١٤) اونس مراكشي
٤ امنان = وزنة	

ويذكر دوبريه Dupré ان المثقال في بغداد كان يساوي درهم ونصف ، ويستخدم هذا العيار لوزن الذهب والفضة والجواهر . وتوزن سبائك الفضة بعيار ذو مئة مثقال .

والجدير بالذكر ان وزن بغداد اثقل بمقدار ثلاثة ونصف بالمائة من وزن الاستانة . ويستخدم في البيع والشراء قياسان مختلفان ، فيستعمل لقياس الشراشف ذراع حلب وبصورة عامة لجميع الاقمشة الاوربية وطوله شبران(**) وابهامين(***) اما ذراع بغداد فطوله قدمان وخمسة اشبار وسبعة ابهامات ويستعمل هذا القياس لجميع الاقمشة الهندية والبغدادية والفارسية .

---

* هكذا وردت في الاصل .
** الشبر طوله حوالي ٢٥ سم .
*** الابهام طوله حوالي ٢٫٥ سم .

ان العملات المتداولة في عاصمة الامبراطورية العثمانية هي نفسها التي تتداول في بغداد ، ومع هذا فان جميع المشتغلين في البيع والشراء يتعاملون بالبيزة (آنه) والتي كل واحدة منها تساوي (٦٣) پاره ولا تصل ابدا اقل من (٦٠) . وقد سكت هذه البيزات القديمة في عهد السلطان احمد ، وقد كان فيها معدنين . وبدأت المسكوكات تتردى منذ ذلك الحين وان القطع النقدية في الوقت الحاضر تكاد تكون جميعها من النحاس . وفي بداية عام ١٨٠٩ اصبحت نقود الامبراطورية في حالة يرثى لها بحيث ادى ذلك الى قيام الحكومة في الاستانة بشراء جميع (الديكات الهولندية) و (زهينات فينيسيا) وذلك لصهرها : (٢) ديكات تساوي اعتياديا (١٨) بيزة والتي تتحول الى ثلاثة فنادق* قيمة الواحدة (٨) بيزات . وقيم النقود الاجنبية تختلف في بغداد كما هو حال في كل مكان وهذا التغير يتبع كثرة او قلة الطلب . ويصدر الى الهند كثير من الديكات الهولندية وزهينات فينيسيا "Zechin" وبيزات اسبانيا و (تاليرات ماريا تريزيا) النمساوية . ولا تباع الجواهر والاقمشة الهندية وشالات كشمير الا نقدا وهذه العملية تمتص كميات كبيرة من العملات .

ويتحدث دوبريه عن شركة الهند الشرقية (الانكليزية) ونشاطها التجاري والسياسي ومما يذكر ان لهذه الشركة في بغداد ممثل هو هارفورد جونز (٢٩) ثم عين كلوديوس جيمس ريج (٣٠) الذي وصل بغداد في وقت كانت فيه العلاقات العثمانية ـ الانكليزية متوترة (٣١) .

ويخصص دوبريه ، الفصل التاسع عشر من كتاب رحلته للحديث عن مدينة البصرة واهميتها التجارية والدمار الذي اصابها من جراء احتلال الجيش الايراني لها سنة ١٧٧٦(**) في عهد الشاه كريم خان الزند (٣٢) .

* نقود ذهبية تركية (المؤلف) .

(٢٩) عين قنصلا لبريطانيا في بغداد سنة ١٨٠٢ .

(٣٠) كانت شركة الهند الشرقية (الانكليزية) ، قد عينت سكرتيرا للمستر لوك قنصل بريطانيا العام في البحر المتوسط والمقيم في القاهرة ، فلما توفى هذا عين ريج مساعدا للمستر ميست Misset في مصر واقام فترة في الاسكندرية واختلط بالمماليك ثم سافر الى حلب متنكرا بزي مملوك ثم الى مكة واستطاع ان يدخل الكعبة ثم رحل الى الهند عن طريق العراق الذي عاد اليه قنصلا سنة ١٨٠٨ .

Constance Alexander, Baghdad in Bygone deys, (London 1928) p. 10.

(٣١) توترت العلاقات بسبب تفوق النفوذ الفرنسي في الاستانة في تلك الفترة .

(**) استمر الاحتلال الايراني للبصرة حتى سنة ١٧٧٩ .

(٣٢) احد افراد عشيرة زند الكردية التي تقطن قرب اصفهان ، وعندما توجه نادر شاه (شاه ايران ١٧٣٦–١٧٤٧) الى الهند جند اعدادا من افراد هذه العشيرة واصطحبهم معه ، وكان كريم خان في رفقته كجندي ، وتقدم حتى صار ضابطا، وعقب مقتل نادر شاه (١٧٤٧) ثار بقية الصفويين والنادريين وراحو يحاربون بعضهم بعضا ، ثم تمكن كريم خان زند من السيطرة على شيراز وما حولها واتخذ منها مقرا لحكمه وفي الفصل العشرين يصف كربلاء والنجف ، ويتحدث عن مرقدي الامامين ابي حنيفه وموسى الكاظم ، وعن انطباعاته حول الحكومة العثمانية (٣٣) .

اما بكنكهام (٣٤)"Buckingham" الذي زار بغداد سنة ١٨١٦ ، ولبث فيها مدة غير يسيرة . حل فيها ضيفا على المقيم البريطاني كلوديوس جيمس ريج Claudius Rich ، فيعطينا وصفا ممتعا لها اذ يقول : ان مدينة بغداد تقع على سهل مستو على الضفة الشمالية الشرقية من نهر دجلة ، وبذلك يكون احد جوانبها ملاصقا لضفة النهر . وللمدينة ثلاثة ابواب للدخول والخروج منها ، اولها يقع في الجنوب الشرقي ، والثاني في الشمال الشرقي ، والثالث في الشمال الغربي من المدينة .

وشوارع بغداد ، كما هو شان كل البلدان الشرقية الاخرى ، ضيقة غير مبلطة . والسراي ، او قصر الباشا ، يتالف من بناية واسعة وليست كبيرة تقع في الحي الشمالي الغربي من المدينة غير بعيدة عن ضفة نهر دجلة ، وتضم داخلها معظم الدوائر العامة ذات المرافق الواسعة لحاشيته ، واصطبل جياده ، وخدمه وهذه البناية عصرية نسبيا (٣٥) ، وهي بما اضيف اليها في فترات متباينة تؤلف مجموعة كبيرة من بناء غير منتظم لا يبرز فيه شيء من جمال فن البناء ، وقوته ، او اهميته .

واعلن نفسه وكيلا عن الشاه الى ان تنتخب الامة شاها لهـــا .

ودام كفاح كريم خان الـذي بداه في سنة ١٧٥٠ للاستيلاء على السلطة حتى سنة ١٧٥٧ تمكن خلالها من القضاء على منافسيه .

انظر : رسول الكركوكلي ، دوحة الوزراء ، ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت ، ١٩٦٣ ص ١٢٠ ،

Wilson, Arnold., The Persian Gulf, (London 1959), p. 172; Sykes, percy., A History of Persia, II, pp. 278-289 (London 1958).

(٣٣) Dupré, Adrien., Voyage en perse Faitdans lesannées 1807-9, entraver sant la Natolie et la Mesopotamie., (Paris 1819).I. pp. 156-157, 178-203

يعتبر Dupré احسن من شاهد بغداد في الربع الاول من القرن التاسع عشر ورحلته جديرة بالترجمة .

(٣٤) بكنكهام (١٧٨٦–١٨٥٥) اشهر الرحالة الانكليز في الشرق العربي ابان النصف الاول من القرن التاسع عشر . وقد بدأ رحلته الى العراق سنة ١٨١٦ عن طريق سورية فعبر البادية الى سنجار ومنها الى الموصل ثم دخل بغداد ليغادرها بعد ذلك الى الهند عن طريق ايران . وقد اصدر مجلدين عن رحلته الى العراق ، كما صدرت رحلته عن ايران في مجلدين ايضا . وضم كتابه عن ايران فصولا خاصة عن البصرة والخليج العربي . كما اصدر بعد ذلك كتابا باسم « رحلات بين العشائر العربية » تحدث فيه عن تطوافه بين العشائر العربية على امتداد فلسطين والاردن وسوريا والعراق .

(٣٥) كان السراي وقت زيارة نيبور الى بغداد سنة ١٧٦٦ يتالف من كثير من الابنية معظمها متهدم . انظر : رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ص ٣٢ .

ويبلغ عدد الخانات او « كروان سراي » في بغداد زهاء الثلاثين . واحد هذه الخانات يدعى « خان الاورطمة » وهو شهير لان فيه اروقة كبيرة وصغيرة . والاسواق متعددة ومعظمها تتالف من ازقة طويلة مستقيمة ذات عرض معتدل . والحوانيت فيها مزودة جيدا بالسلع الهندية .

وتتالف تجارة بغداد غالبا من المصنوعات الهنديةومنتجاتها التي تصل من البنغال الى البصرة ثم يجري توزيعها الى بلاد نجد عن طريق سورية ، والى كردستان وارمينيا وآسيا الصغرى .

وقد ذكر ان هذه التجارة قد زادت خلال السنوات العشر الاخيرة من سفينة واحدة الى ست سفن تحمل العلم البريطاني عدا السفن الاخرى التي تحمل الاعلام العربية .

وتعتمد المواصلات بين بغداد والبصرة بصفة رئيسة على القوارب التي تمخر مياه دجلة ولو انها كانت تجري قبلا بطريق الحلة على نهر الفرات . وهذا الطريق الاخير يعد الان غير مامون بسبب غارات بعض افراد القبائل . والزوارق التي تستخدم لنقل البضائع في النهر تبلغ حمولتها من عشرين الى خمسة وعشرين طنا . وهي تقطع المسافة ما بين بغداد والبصرة في غضون سبعة او ثمانية ايام . ولكن حين تسكن الريح فان الزوارق تقطع هذه المسافة فيما يتراوح بين عشرة ايام وخمسة عشر يوما .

ويتحدث بكنكهام عن القنصلية الانكليزية ويقول عنها انها تعد من اوسع المنازل في المدينة وافضلها واكثرها تامينا للراحة . وفيها الى جانب المقيم ريچ "Rich" ، طبيب انكليزي وسكرتير ايطالي ، وعدد من الادلاء او المترجمين والسائسين والخدم ، وهم يتالفون من الاتراك والعرب والجيورجيين والفرس والهندوس . وهناك سرية من الجنود الهنود يؤلفون الحرس . وان المستر ريچ "Rich" يعتبر بصفة شاملة اقوى رجل في بغداد، وانه يأتي بعد الباشا مباشرة !

اما القنصلية الفرنسية فانها تتالف من المسيو فيغورو "Vigoroux" القنصل العام ، ومن مترجم من حلب وهي لا تضم سوى دار وضيعة وقلة من الخدم . والدير المسيحي الذي يخضع للحماية الفرنسية يديره راهب كرملي يدعى الاب فانسنزا "Padre Vincenza" (٣٦) .

ويصف هود "Heude" الرحالة الانكليزي الذي زار بغداد سنة ١٨١٧ الاحداث التي وقعت في اواخر عهد سعيد باشا والي بغداد (١٨١٣–١٨١٦) اذ كان شاهد عيان لها ، وهي الاحداث التي انتهت بمقتل سعيد ودخول داود باشا بغداد (٣٧) وتوليه الحكم فيها ، وكانت بغداد قد انقسمت بين مؤيد ومعارض لحكم سعيد باشا فادت الفوضى التي كان لايسمع فيها غير دوي المدافع وازيز الرصاص . وقد كان هود "Heude" يشاهد من الشرف العالية لدار المقيم البريطاني المتقاتلين في الشوارع .

وقد زار هود "Heude" الوالي الجديد داود باشا في السراي برفقة المقيم البريطاني ريچ "Rich" فاعطى وصفا لمراسيم الاستقبال التي جرت لهم ومما ذكره :

ان موعد حضور القنصل يحدد من قبل ، وعند وصولنا الى الفناء الخارجي للسراي كان بانتظارنا عدد من الجند الانكشارية ثم ترجلنا من الخيول ، وادى الحرس التحية الاعتيادية لنا . ثم دخلنا الى الفناء الداخلي من باب صغيرة وواطئة فمررنا بين صفين من ثلثمائة كرجي يمتدون على طول الطريق المؤدي الى قاعة الاستقبال الرسمية ، وكان هؤلاء الكرج يرتدون ازهى الملابس ويتصفون بالوسامة والجمال ويتقلدون الاسلحة النارية الخفيفة والخناجر ويقفون في سمت ووقار . وعند مدخل القاعة كان الباشا يجلس على وسائد حريرية وعن يمينه يجلس رجال ديوانه وهم صامتون ثم حيانا الباشا بقدومنا وذلك بانحناءة طفيفة لجسمه كما لو كان يستند للنهوض . ثم جلسنا بعد ذلك على كراسي نظرا لان القنصل ورفاقه لم يتعودوا الجلوس على الوسائد(٣٨) .

ومر في بغداد سنة١٨١٨ الاثاري كر بورتر "Ker Porter" في طريق عودته الى وطنه بعد دراسته في ايران وقد نزل ضيفا على المقيمية البريطانية . ووصف بورتر "Porter" بغداد كما رآها ، وهو يقول ان اطول اسوارها خمسة اميال وتقع قلعتها في النهاية الشمالية الغربية للسور الكائن على الضفة الشرقية. ولكل من شطري المدينة ثلاثة ابواب . وفي داخل المدينة كان القسم الاكبر من الاماكن مهدما وتمتاز بغداد بشوارعها الضيقة ويقول « ان الصورة التي كان يرسمها لبغداد باعتبارها مدينة الف ليلة وليلة قد تلاشت عند مشاهدته لها » .

ويعطي بورتر "Porter" الذي حظي هو الاخر بزيارة داود باشا والي بغداد ، سنة١٨١٨ برفقةالمقيمالبريطانيريچ "Rich" وصفا لمراسيم التقديم التي تجري في غرفة الاستقبال ومما جاء في وصفه :

ان الحلوى تقدم في اناء ذهبي يحمله خادم بيد وباليد الاخرى يمسك بملعقة من ذهب ايضا يضع فيها الحلوى في فم الزوار ، وبعد ذلك توضع مناشف من الحرير على ركبتي كل زائر وتقدم القهوة وبعد الانتهاء منها تستبدل المناشف الحريرية بمناشف من الموسلين جميعها مطرزة ويقدم الشربت في اقداح جميلة وثمينة . وبعد الانتهاء من كل هذه الاشياء يصب على

---

(٣٦) جمس بكنغهام ، رحلتي الى العراق ، الجزء الاول ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٧–١٩٨ ، ٢٠٤–٢٠٦ ، ٢٠٩–٢١١ .

كان اعتمادي على الترجمة العربية ويمكن لمن يرغب الرجوع الى الاصل الانكليزي

Travels in Mesopotamia., vol, II, London (1827)., pp. 177-178; 180-181; 189-190; 201-203; 209-212.

(٣٧) سئمت بغداد من حكم سعيد الضعيف ، واصبح داودباشا زعيم المعارضة والتف حوله المتذمرون . وفي ايلول ١٨١٦ خرج داود من بغداد بحجة الصيد ، فاتجه نحو كردستان ومن هناك بدأ يخطط لاسقاط حكم سعيد باشا .

(٣٨) Heude, William., Avoyage up the persian Gulf and a Journey over land from India to England in 1817., (London 1819). pp. 164-167; 171-172

كتب في ذكر البصرة، الفرات، الفراف، بغداد، الموصل. الكتاب ممتع وتاريخي .

أيدي الحضور ماء الورد من ابريق من الفضة ، وبعد ذلك يوزع العطر فيوضع على لحية كل زائر وعلى شاربيه (٣٩) .

ويذكر المنشيء البغدادي(٤٠) الذي دون في سنة ١٨٢١ اخبار رحلته في العراق ان لبغداد خندقا عظيما وبروجها وسورها محكمة ، ووصف سور الجانب الغربي الجديد وابوابه وهو السور الذي انشاه سليمان باشا الكبير(٤١) في زمن ولايته (١٧٨٠-١٨٠٢) .

وفي بغداد الجديدة* اربعة ابواب ، الاول الجسر في وسط البلد ، والثاني في الطرف الغربي من البلد (باب المعظم)، والثالث (الباب الوسطاني) ، والرابع (الباب الشرقي) .

وفي بغداد القديمة** اربعة ابواب الاول (باب الكاظم) ، والثاني (باب الشيخ معروف) ، والثالث (باب الحلة) ، والرابع باب الطرف الشرقي (الكريمات)*** . وبغداد مبنية على جانبي دجلة (٤٢) .

ويقول فريزر(٤٣) "Fraser" السائح البريطاني الذي زار بغداد في سنة ١٨٢٤ . ان شوارع المدينة عبارة عن ازقة ضيقة غير مبلطة ، وانه قد اصيب بخيبة امل عندما رأى اسواق بغداد ، ليس السبب في ذلك افتقارها الى السعة والامتداد ، لانها على مقدار كاف منهما ، ولخلوها من الناس ، او عدم وجود حركة فيها ، لانها تكون في كثير من الاحيان مكتظة اكتظاظا كافيا فتظهر بمظهر يزيد تنوعا وبهاء عما يلاحظ عادة في الاسواق الايرانية . وانما هناك من ناحية البناء والعمارة قفر في التخطيط وحقارة في التنفيذ ، ومظهر من مظاهر التهدم ، الذي يعزى جزئيا الى الكوارث التي اصابت المدينة مؤخرا (٤٤) بطبيعة الحال ، لكن كثيرا منه يرجع السبب فيه الى عيب اصيل وجد في طراز البناء منذ البداية . على ان بعض الاسواق ، ومنها صف ثلاثي او رباعي ممتد الى مسافة غير يسيرة من تشييد داود باشا ، قد بني بناء جيدا بالجص والآجر المفخور ، وتقل عن الشمس بسقوف ذات طوق عالية مبنية بالمواد نفسها . لكن اسواقا اخرى كانت خربة جدا ، وكانت سقوفها مصنوعة من مرادي الخشب الممدود بصورة وقتية غير منتظمة والمغطاة بالسعف او القش والقصب .

وهناك في مختلف اجزاء المدينة عدة فسح او « فضوات » مكشوفة يباع فيها البعض من انواع السلع ، وقد سميت باسمائها ، مثل « سوق الغزل » و « سوق الموسلين » و « سوق الحنطة » * وما اشبه .ومن بين هذه كلها كانت اكبرها وازهاها السوق القريبة من الباب الشمالية الغربية ، او باب الموصل . غير ان اية سوق من هذه الاسواق لا يمكن ان تمت بصلة الى اي رونق او بهاء ، وحتى الى النظافة بالذات وهناك سوق الميدان** الذي تعرض فيه الخيل للبيع ، وهو محاط بالمقاهي ، وهو في الوقت نفسه الميدان العام للاستعراض وتنفيذ احكام الاعدام .

ويقتبس فريزر "Fraser" وصف الجوانب الاخرى من المدينة والحياة الاجتماعية فيها ، مما كتبه الرحالة بكنغهام "Buckingham" وهو يقول بهذا الصدد معللا اقتباسه (ويبدو لي ان الوصف الذي عمد اليه بكنغهام في كتابه « رحلات في بلاد بين النهرين » هو على درجة من الجودة بحيث انني سوف لا اترك مجالا متيسرا من دون ان ابادر فيه الى اقتباس شيء منه ...) .

ويتحدث فريزر "Fraser" عن الطاعون الذي ظهر في بغداد ، في اوائل ١٨٣١ ، الطاعون الذي كان يفتك فتكا ذريعا في ايران . وقد قيل ان بعض الاصابات الفردية كانت قد وقعت منذ تشرين الثاني ، ولكنها اخفيت او اهملت . ولم تصبح حقيقة الطاعون المميتة ، التي كان يتزايد ظلها في بغداد ، شيئا مخيفا حتى حل شهر آذار من سنة ١٨٣١ . اذ ازداد عدد

---

(٣٩) Porter, R. K., Travels in Georgia, persia, Armenia and Ancient Babylonia during the years 1817-1820. vol. II. (London 1822)., pp. 243; 248-249

(٤٠) وهو محمد بن احمد الحسيني المنشيء البغدادي وعرف (بالسيد محمد آغا الفارسي) السكرتير الايراني للمقيمية البريطانية ببغداد على عهد كلوديوس ريج ، وقد رافق ريج في رحلته التي قام بها الى كردستان عام ١٨٢٠ .

(٤١) احاطه بخندق صغير من الجهة الخارجية ، وشيد عدة ابراج فيه جهزت بالمدافع وذلك لصد هجمات الاعراب من الجهة الغربية للمدينة ، فهدم مدرسة الاصحاب للشافعية التي بجوار تربة الست زبيدة كما هدم الرباط المقابل لها وبنى السور من انقاضهما . وان هذا السور وان كان قد انشيء لاغراض عسكرية دفاعية الا انه استخدم حاجزا لصد مياه الفيضان من جهة الفرات غربا . انظر : احمد سوسه ، فيضانات بغداد في التاريخ ، القسم الثاني ، بغداد ١٩٦٥ ، ص ص ٣٦٥-٣٦٦ .

* الرصافة (الجانب الشرقي من بغداد) .

** الكرخ .

*** ليس هناك ابواب بهذا الاسم ، ولم يعرف الا باب الحلة، وقد زال ، والكريمات محلة معروفة ، ولم تكن بابا ، كما ان الجعيفر يطلق على باب الكاظم ، وهو محله ايضا . وكان الكرخ مسورا ، فذكر له ابوابه .

(٤٢) رحلة المنشيء البغدادي ، نقلها عن الفارسية عباس العزاوي ، بغداد ١٩٤٨ ، ص ص ٣١-٣٢ .

(٤٣) J. Baillie Fraser, Travels in Koordistan & Mesopotamia, (Richard Bentley, New Burlingtonst, London 1840).

رجل مهنته الكتابة ، وقد كتب بهذا يصف اردلان ، شهرزور ، كفري ، بغداد ، ايران ، اذ انه كان قد سافر من استانبول الى ايران على ظهور الخيل وحط الرحال في تبريز .

(٤٤) يقصد طاعون وفيضان ١٨٣٠-١٨٣١ الذي تعرضت له بغداد اواخر عهد داود باشا والي بغداد .

* لعله سوق الملوجية .

** لاشك انه ساحة الميدان الحالية . وقد ذكر الرحالة بكنكهام الذي زار بغداد سنة ١٨١٦ في رحلته الموسومة « رحلات في بلاد بين النهرين » والمترجمة الى العربية بعنوان « رحلتي الى العراق » جـ٢ ، ص٨٢ . وفي الاصل الانكليزي ص٤٣١ . انه في وسط المدينة تقريبا يوجد الميدان وهو مكان متسع حوله مباني الطبقة الارستقراطية ، ولا يخلو الميدان كل ليلة من الازدحام باناس من مختلف الطبقات حيث تغنى هنا مختلف صنوف الاغاني الى جانب العزف الموسيقي وممارسة الرقص وايقاد النيران والمصابيح بالاضافة الى مظاهر الابتهاج الاخرى .

الوفيات ازديادا ملحوظا ، وتايد لدى المسؤولين في السراي بان عدد الموتى بلغ خمسة آلاف نسمة .

واستعر الوباء يحصد النفوس حصدا ، فخلت الشوارع من المارة ، وتكدست فيها جثث الموتى ، وعجز الاحياء عن دفن موتاهم ، فحل الصمت الرهيب محل العويل على الموتى . وزاد الامر سوءا ندرة الطعام ووفاة معظم السقائين الذين يقومون بنقل الماء الى دور الاهلين . ومن بقي حيا منهم كان يأخذ الماء لغسل جثة احد الموتى .

ثم جاء فيضان دجلة في الحادي والعشرين من نيسان ليتعاون مع هذا الوباء على بغداد المنكوبة .

وفي اوائل مايس انكسرت حدّة مياه الفيضان وعنفوان الطاعون ، فقد اخذت مياه دجلة بالانخفاض ، وتناقص الطاعون حتى زال في نهاية الاسبوع الاول منه خطر الطاعون والماء معا(٤٥).

ويتطرق فريزر الى استيلاء علي رضا باشا على بغداد وقضائه على المماليك سنة (١٨٣١) ، وطريقته في الحكم مع سياسته العشائرية ، ويقدم معلومات مفيدة عن عشائر جربا وعنزه وعقيل وزبيد واستفحال امرها مع تهديدها لبغداد نفسها (٤٦) .

وزار بغداد في منتصف القرن التاسع عشر جيمس فيلكس جونس الرحالة الانكليزي الذي اوفدته حكومة بومباي الى العراق ليقوم بمسح طبوغرافي للنهروان القديم . وقد ضم تقريره الذي رفعه الى حكومة بومباي بعد انتهاء مهمته فصلا مهما عن بغداد تناول فيه مختلف اوجه الحياة فيها معززا حديثه عنها بالجداول المهمة . ومما اورده قائمة بالاسواق والمحلات التي كانت في بغداد يومذاك ، والعشائر ومواطنها مع ذكر عدد خيامها . وقائمة باسماء الادوية والعقاقير التي كانت تباع في بغداد واسعار الحاجيات في اسواقها . وجدول يوضح الاثقال والاوزان المستعملة في اسواق بغداد والمسكوكات التي كانت متداولة فيها .

ويعطي فيلكس جونس ايضا وصفا لسور بغداد وابوابه الاربعة ، ويذكر ان المفتوح منها ثلاثة فقط هي : (باب المعظم) ، و (الباب الشرقي) ، و (الباب الوسطاني) . اما (باب الطلسم) فقد اغلقت حسب التقاليد لان السلطان مراد الرابع قد خرج منها الى القسطنطينية بعد ان فتح بغداد وانهى السيطرة الفارسية عليها .

كما ويورد تقريرا عن مدى صلاحية دجلة والفرات للملاحة (٤٧) .

ومعلومات اخرى عن بغداد ، على ما كانت عليه في سنة ١٨٥٤ ، يوردها السائح الالماني بترمان "Petermann" الذي زار بغداد اثناء ولاية (كوزلكلي رشيد باشا) (٤٨) ، ومكث فيها خمسة اشهر . وهو يقول ان بغداد لا تزال مركزا تجاريا مهما ترد اليها الاموال من اوربا والهند وايران . وان اكبر الاوزان الشائعة فيها هو (الطغار) ويقابل عشرين وزنة او ثمانين منا ، ويستعمل عادة للحنطة والشعير . وفيما عدا ذلك يعتبر (القنطار) اكبر وزن ويساوي حسب ميزان الصيدلي ثلاثين (من) وحسب ميزان البقال (٢٢) منا ونصف من .

وتوجد في (الوزنة) الواحدة اربعة امنان وفي (المن) ستة حقق وفي (الربع) (الجهاريك) حقه ونصف . و (الحقة) الواحدة تقابل اربعة اوقيات و (الوقية) الواحدة اربعة ارباع و (الربع) الواحد (١٦) ونصف مثقال او (٢٥) درهم اما (المثقال) فيساوي درهما ونصف درهم او (٢٤) حبة و (الحبة) تساوي اربعة قمحات . والحبة الواحدة في ايران تكون عادة اصغر قليلا من حبة بغداد . وبناء على ذلك يكون مثقال بغداد اكثر من مثقال ايران بحبتين . ويقسم الايرانيون هذا الى (٢٤) حبة . ويساوي الدرهم ثلثي المثقال وخمسة وقيات وحسب وزن الصيدلي تعادل حقة واحدة من حقق البقال . ويساوي من العلوة ثمانية ونصف من حقق البقال و (الرطل) الواحد يساوي نصف من وفي الموصل يقابل الرطل الحقة . وفي الحلة تقابل حقة البقال حقتين من حقق البقال وتساوي وقية الحلة وقيتين من بغداد . ويعادل من البصرة خمسة امنان في بغداد . بينما في سوق الشيوخ الوقية الواحدة تقابل (٧) وقيات في بغداد . والمن الواحد الشامي في تبريز يقابل حقتين من وزن البقال .

وفيما يتعلق بمقياس الذراع ، فان ذراع حلب هو اصغرها اذ تساوي خمس الذرع حلبية اربع الذرع بغدادية وخمسة الذرع بغدادية تقابل اربع الذرع فارسية ويوجد في كل ذراع ستة عشر شبرا .

اما المسكوكات النقدية فان في بغداد يوجد (القران) وهو على نوعين رديء وجيد . والقسم الرديء يقل بقرش من الجيد ويتعامل البعض (بالشامي) وبالقرش . وكانوا قبلا يتعاملون بفئة المئة (يوزلك) ويسمون ذلك في مصر والشام (شوشي) اما في بغداد نجد (ابى تاكه) وكان ثمنه يساوي اثنين ونصف شامي او قرش .

وقد استعملت هذه السكة في بغداد الى سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦م) حتى وصول داود باشا بغداد ثم توليه الحكم . وفي تلك الايام كان الشامي الواحد يقابل قرشا . فاصبح بعد مدة مساويا ثلاثة قروش . ثم ارتفع الى سبعة ونصف قروش . وبعد عزل داود باشا كان ثمن الشامي في سنة ١٨٥٥ يساوي ثمانية قروش استنبولية او على الاصح ثمانية وربع قرشا استنبوليا وهذا يعادل (٣٣) قرش بغدادي لان القرش التركي الاستنبولي كان يعادل اربعة قروش بغدادية .

---

(٤٥) يذكر كروفس وهو مبشر بريطاني كان يسكن في بغداد اثناء الطاعون ، انه اخذ يسمع لاول مرة منذ ثلاثة اسابيع اصوات المؤذنين للصلاة ، وقد بدأت الحركة من الجديد تدب في المدينة التي فقدت ثلثي سكانها تقريبا .
انظر : خلاصة سفر المستر انطوان نوريس كروفس ، ووصوله الى بغداد واقامته فيها (منقول من الانكليزية الى العربية) . لم يطبع . موجود في مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب ببغداد برقم ١٢١١ ، ص ص ٣٩-٤٠ .

(٤٦) رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ص ص ٧٥ ، ٧٧-٧٨ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٢٩ .

(٤٧) لقد قام بترجمة الفصل المتعلق باقليم بمداد الاستاذ الفاضل عبدالوهاب الامين وقد نشرت ترجمته القيمة في مجلة المورد الغراء التي تصدرها وزارة الاعلام العراقية في العددين الاول والثاني من المجلد الثالث (١٩٧٤) . لذا اكتفيت باعطاء استعراض موجز لما تضمنه هذا الفصل .

(٤٨) تولى باشوية بغداد سنة ١٨٥٢ وبقي في منصبه حتى توفي سنة ١٨٥٦ .
انظر : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ٧ ، بغداد ١٩٥٥ ، ص ص ١٠٢ ، ١١٠ .

وفيما عدا ذلك كان في بغداد كثير من المسكوكات النحاسية لا سيما من فئات العشر والعشرين (كرويسات) وبقدر ما كانت هذه المسكوكات نادرة في النحاس كانت مبذولة في بغداد (٤٩) .

وشاهد بغداد في سنة ١٨٦٤ « جون اشر » John Ussher عضو الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ، وذلك ضمن رحلته(٥٠) التي قام بها الى موقع الآثار الايرانية المعروف باسم « تخت جشميد » ، القريب من شيراز .

ويقول جون اشر ان اول بناية لفتت نظره عند دخوله بغداد هي في الجانب الشرقي من المدينة وقد كانت بناية كبيرة كئيبة يبدو فيها الاهمال والخراب وقد علم انها قصر الباشا .

وفي صباح اليوم التالي لوصوله ذهب بصحبة الدكتور هيسلوب Hyslop نائب القنصل البريطاني العام في بغداد يومذاك لزيارة الباشا (٥١) . وكان قصره المحوط بعدد كبير من المتسكعين الـ « باش بوزوغ » والغبالة غير النظاميين عبارة عن مبنى ضخم من الطابوق بحالة نصف خربة .

وقد استقبلهما الباشا في غرفة كبيرة ، خالية من الاثاث الكثير . وبعد تقديم القهوة والقلايين ، استفسر الباشا منه عن اسباب مجيئه الى بغداد . وحيد له زيارة كربلاء والنجف اثناء سفرته المزمعة الى بابل ، وطمأنه بسلامة الطريق . وقد استحصل على وعد من الباشا بتزويده بكتب توصية الى حكام كربلاء والنجف والحلة ومن ثم غادروا ديوانه مخترقين جموع الناس التي كانت تزدحم بهم الطارمات والممرات .

ويصف جون اشر اسواق بغداد ويقول انها ملأى بالسلع والبضائع من جميع الاصناف ، ومنها مقدار كبير من الكوفيات الملونة بالالوان الزاهية التي تعد من اهم المصنوعات البغدادية . وان الازدحام في الاسواق يشتد في فترة الصباح على الاخص بحيث يصعب على الراكب المرور . ويقول ان اصوات المنادين على السلع في تلك الاسواق ، مثل باعة الشربت والفاكهة وما اشبه ، كانت تصم الآذان .

على انه مع هذا كله يذكر ان قسما من الاسواق كان بحالة شبه خربة ، وبعضها كان خربا كله . ويضيف الى ذلك قوله ان التجارة مع كونها نشطة في بغداد حينما زارها الا انها قد انحطت عما كانت عليه من قبل في الاهمية بحيث يمكن ان يقال ان الانحطاط قد وصل الى حد الربع ، وعلى الاخص بالنسبة لما كانت عليه في عهد الخلفاء . ويستشهد على حالة الانحطاط التي وصلت اليها بغداد مدينة « الف ليلة وليلة » بما كانت تضمه في داخل اسوارها من الفسح والمساحات الكبيرة الخالية الا من اكوام الانقاض .

ثم يقول ان البادية تحيط ببغداد الى حد الاسوار التي توجد فيها ثلاثة ابواب يدخل منها الناس الى المدينة . غير ان احدى هذه الابواب وهي الباب الكائنة في الجهة الشرقية من المدينة (الرصافة) قد اغلق وسدت فتحته بجدار من الطابوق منذ ان خرج منه السلطان مراد الرابع عائدا الى استانبول بعد ان توفق في استردادها من الصفويين سنة ١٦٣٨ .

وتحدثنا مدام ديولافوا(٥٢) التي قدمت بغداد سنة ١٨٨١ عن السفن التي كانت تستخدم بين بغداد والبصرة ، وتقول ان ثمة شركتين تقومان بتسيير السفن البخارية بينهما الاولى شركة « لنج لندن » التي تسير سفينة كل اسبوع وهي قذرة جدا لانه يترك للمسافرين فيها حرية القيام بعمليات الطبخ والغسل في ممراتها وعنابرها . والشركة الثانية يديرها جماعة من الاتراك وتسير شهريا سفينتين .

وبخصوص التراموای الذي انشاه مدحت باشا والي بغداد (١٨٦٩-١٨٧٢) ، لربط بغداد بالكاظمية ، فانها تقول انه يقطع المسافة بينها في ربع ساعة وان طريقه لا يتجاوز طوله ستة كيلومترات . وتعطينا صورة عنه بحيث تجعلنا نعتقد انه لم يؤد الى الهدف المنشود منه فهي تذكر ان طريق الترامواي متعرج ضيق متعب اذا حدث وسقطت عربة او تعطلت بسبب انتشار المياه توقف العمل فترة طويلة .

وعن بوابات مدينة بغداد تقول : (لقد وجدت فوق احدى بوابات مدينة بغداد نقشا يؤرخ فتح السلطان مراد لبغداد مع جيوشه العثمانية .. وجاء في هذه الكتابة ما معناه :

« دخل السلطان مراد في ٢٤ ديسمبر سنة ١٦٣٨ بغداد ظافرا بعد ان حاصرها مدة اربعين يوما وكان دخوله من هذا الباب (٥٣) ») .

اما اسواق بغداد فان مما يلفت النظر فيها كثرة البضائع الثمينة على اختلاف انواعها(٥٤) .

سكان بغداد

كان في بغداد عدد كبير من السكان الا انه كثيرا ما تناقص بسبب ما كان يصيبه من كوارث ، وقد قدر مطران بابل المسيو بوشان Beachamp الذي سكن بغداد ستة اشهر بين سنتي ١٧٨١ و ١٧٨٢ سكانها بمائة الف نسمة ، ويروي ان الطاعون الذي اصاب المدينة في سنة ١٧٧٣ قد قضى على ٥٠-٦٠ الف من سكان المدينة . وهذا التخمين يستند الى مجموع الدرع الاقمشة

---

(٤٩) بغداد كما وصفها السواح الاجانب ، ص ص ٨٢ ، ١١٧-١١٩ .

(٥٠) John Ussher, London to persopolis, including wanderings in Daghestan, Georgia, Armenia, and persia. (London, 1865).

قام بترجمة ما كتبه صاحب الرحلة عن العراق الاستاذ جعفر الخياط بعنوان :

« مشاهدات جون اشر في العراق »

(٥١) انه نامق باشا الذي تولى باشوية بغداد لاول مرة سنة ١٨٥١ ، ثم تولاها للمرة الثانية في سنة ١٨٦١ واستمر في ولايته حتى سنة ١٨٦٧ حيث عزل منها . عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ٧ ، بغداد ١٩٥٥ ، ص ص ٨٩ ، ١٥٤ .

(٥٢) أدبية مؤرخة فرنسية ، وردت العراق في ولاية نقي الدين باشا الثانية على العراق . ترجم لها الدكتور مصطفى جواد في مقدمته لرحلتها . (انظر لاحقا) .

(٥٣) باب الطلسم المعروف قديما بباب الحلبة

(٥٤) رحلة مدام ديولافوا الى كلده ـ العراق سنة ١٨٨١م « ١٢٩٩ هـ » ، نقلها الى العربية عن الفارسية علي البصري ، بغداد ١٩٥٨ ، ص ص ٢٧ ، ٦٦ ، ٩٠-٩١ ، ١١٩ .

التي باعها التجار لتستعمل اكفانا للموتى اذ لم يكن في ذلك الوقت تسجيل لعدد الاموات(٥٥) .

اما اوليفيه(٥٦) "Olivier" الرحالة الفرنسي الذي زار بغداد ١٧٩٦ فقد قدر عدد سكان بغداد باكثر من مائة الف نسمة (٥٧) بينما نجد روسو "Rousseau" وهو قنصل عام لفرنسا في بغداد خلال السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر ، يقدر سكان بغداد بحوالي ثمانين الف نسمة وهم على الوجه التالي :

خمسون الفا من العرب

خمس وعشرون الف تركي وهم من الانكشارية وحرس الباشا

الف كردي

الف وخمسمائة مسيحي (كلداني وارمني)

الفان وخمسمائة يهودي

وحسب رواية دوبريه "Dupré" سنة (١٨٠٨) ، ان طاعون سنة ١٧٧٣ قضى على ثلث سكان بغداد وكانت البقية (١٥٢٢٢) اسرة مؤلفة من (٧٦٠٠٠) شخص بينها (٦) اسر اوربية ، و (٦) يونانية ، و(٨) سريانية و(٩٠) كلدانية و(١١٢) ارمنية و(٢٠٠٠) يهودية و(١٣٠٠٠) اسرة اسلامية مؤلفة من العرب والاتراك والعجم (٥٨) .

اما بكنكهام "Buckingham"(١٨١٦) ، فانه يقدر سكان بغداد بما يتراوح بين (٥٠-١٠٠) الف نسمة . الا انه يجعل الحد المقارب للحقيقة ثمانين الفا(٥٩) .

وقد اختلف السائحون الاجانب في تقديراتهم لعدد سكان المدينة قبل طاعون وفيضان ١٨٣٠-١٨٣١ وبعدهما ، فقد ذكر المبشر كروفس(٦٠)"Groves" في يومياته عن الطاعون والفيضان ان اكثر من نصف سكان المدينة هلكوا خلال مدة تقدر باقل من شهرين ، ثم يعود فيقول انه توصل بعد التدقيق والتحقيق الى ان عدد الذين هلكوا بلغ ثلثي السكان ، ولما كان قد قدر عدد السكان بثمانين الف نسمة قبل الطاعون والفيضان(٦١) فيكون الباقي حسب تقديره الاخير لعدد الوفيات زهاء (٢٧٠٠٠) الف نسمة .

اما ويلستيد(٦٢) "Wellested" الرحالة الانكليزي الذي زار بغداد في سنة ١٨٢١ فيذكر ان عدد نفوس بغداد هبط من جراء هذه الكوارث من (١٥٠) الف نسمة الى (٢٠) الف نسمة (٦٣) . ثم زار بغداد في (١٨٢٤) السائح البريطاني فريزر "Fraser" فقدر عدد سكان بغداد قبل الحادث المذكور بـ (١٥٠) الف نسمة الا انه قدره وقت زيارته بـ (٨٠) الف نسمة(٦٤) . ويبدو من خلال تقديرات الرحالة ان عدد سكان بغداد اوائل القرن التاسع عشر كان يربو على المائة الف نسمة ، ولكن هذا العدد تناقص ايضا فيما بعد اذ يذكر الرحالة والمستشرق والمساح الانكليزي جيمس فيلكس جونس الذي اوفدته حكومة بومباي الى العراق في منتصف القرن التاسع عشر، ان تعداد نفوس بغداد يبلغ حوالي ستين الفا(٦٥) .

اما بترمان "Petermann" الذي زار بغداد في سنة ١٨٥٤ فانه لا يعتقد بما ذكره له والي بغداد (رشيد باشا كوزلكلي) ، من ان عدد سكان بغداد لا يتجاوز (٣٦٠٠٠) نسمة. وكان الوالي المذكور مقتنعا بحسابه لانه احصى النفوس في السنة الماضية لاجل استحصال الضرائب لكنه لم يحسب ان معظم الموظفين المختصين بهذه المهمة يتعاطون الرشوة ويسجلون بهذا الشكل اقل من الحقيقة . ويرى بترمان ان عدد سكان المدينة بين (٦٠-٨٠) الف ، اغلبهم من المسلمين وعدد النصارى واليهود اقل بكثير .

وحسب روايته هنالك (٨) عوائل كاثوليكروم ، و(٨٠) عائلة من الارمن ، و(٦٠) عائلة سريانية - يعقوبية (كاثوليكية) ، و (١٢٠) عائلة كلدانية . ويظن ان عدد اليهود هو (١٢٠٠) عائلة (٦٦) .

وفيما يتعلق بزي سكنة بغداد والبستهم فان الرحالة يتفقون في وصفهم له من انه يتصف بالبساطة وهو عبارة عن ملابس فضفاضة وطويلة ويضع السكان العمائم البيضاء على رؤسهم ، واما الاعراب فهم يعرفون بكوفياتهم المصنوعة من الحرير او القطن وعباءاتهم الصوفية الواسعة ، والخنجر يماني الشكل الذي يحملونه . ويتالف لباس اليهود والمسيحيين عادة من عباءة سوداء وشال من الجوخ (الكشمير) او الحرير الازرق الذي يستعملونه للعمائم .

وترتدي نسوة بغداد عباءات زرق اللون ، ويغطين وجوههن بقطعة من القماش الاسود الشفاف ، واجمل النساء هن الكرجيات والشركسيات (٦٧) .

---

(٥٥) بغداد كما وصفها السواح الاجانب ، ص ص ٢٦-٢٧ .

(٥٦) كتب في وصف ماردين ، الموصل ، كركوك ، بغداد ، البصرة .

(٥٧) Olivier, G.A. Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte, et la perse., (Paris 1801). IV. p. 324

(٥٨) Dupré, op. cit. I. p. 174.

(٥٩) بكنكهام ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٩٦ . وفي الاصل الانكليزي ، جـ٢ ، ص١٩٣ .

(٦٠) مبشر انكليزي اقام في بغداد عدة سنين وفتح مدرسة فيها لايتام النصارى من ارمن وغيرهم ، وله كتيب يصف فيه ايام الطاعون وفيضان دجلة الذي حدث في سنة ١٨٣١ . والكتاب اسمه :
Journal of a Residence in Baghdad (London 1932).

(٦١) خلاصة سفر المستر انطوان نوريس كروفس ، ص ٣٠ ، ٣٨-٣٩ .

(٦٢) من المنتمين للاسطول الهندي ، كتب في وصف البصرة ، بغداد ، حلب .

(٦٣) Wellsted, J. R., Travel to the city of the Caliphs, vol. I. (London 1840)., p. 295
مهم ولا سيما في اخبار الطاعون ١٨٣١ .

(٦٤) فريزر ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٦٥) مجلة المورد ، المجلد الثالث (العدد الاول) ١٩٧٤ ، ص ٣٢ .

(٦٦) بغداد كما وصفها السواح الاجانب ، ص ص ٨٥-٨٦ .

(٦٧) Porter, op. cit. II. pp. 248-249; Dupré, op. cit. pp. 174-175
بكنكهام ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ص ٢٠٠-٢٠١ ،

قـوة بغـــداد العسـكرية

يقدم لنا الرحالة الاجانب معلومات واحصاءات مهمة عن القوات التي كان يستخدمها ولاة بغداد ، فقد ذكر الرحالة تافرنيـــه "Tavernier" ، ان بامرة باشا بغداد ستمائة او سبعمائة خيال . وهنالك ايضا آغا يراس بين الثلثمائـــة والاربعمائة سباهي * ، هذا الى جانب صف آخر من الخيالة يسمون جنكوليلر اي « الشجعان » ، على رأسهم اثنان من الافوات . ويوجد منهم في المدينة والمناطق المجاورة لها حوالي ثلاثة آلاف . وتودع مفاتيح المدينة وباب الجسر عند آغا بامرته مائتا انكشاري . وهنالك ستمائة من المشاة يراسهم آغا ، ونحو ستين مدفعيا بامرة خبير تركي (٦٨) .

اما نيبور "Niebuhr" الذي زار بغداد في عهد عمر باشا (١٧٦٤ـ١٧٧٥) ، فانه يذكر ان القوات الموضوعة مباشرة تحت تصرف باشا بغداد ـ بما فيها حرسه الخاص** ـ تتراوح بين ٦ـ٧ آلاف مقاتل . واذا ما احتاج الباشا الى قوات اكثر عددا فانه يقوم بجمع الرجال لحمل السلاح من البصـــرة والحسكة وماردين وكردستان والقبائل العربية الرحالة فـي منطقة نفوذه (٦٩) .

ويقدم لنا دوبريه "Dupre" قائمة عن الجيش في عهد سليمان باشا الصغير (١٨٠٨ـ١٨١٠) وهي على النحو التالي :

جند الباشا الموظفون	٥٠٠٠
العـرب التابعون لبغداد	٢٠٠٠٠
ماردين وما يتبعهـــا	٢٠٠٠
السليمانيـــة	٤٠٠٠
كوي سنجق	٢٥٠٠
زهـــــاو	١٥٠٠
كركوك واربيل والتونكوبري	٣٠٠٠

فيستطيع باشا بغداد ان يجمع قوة عسكرية قوامها (٣٨) الف مقاتل(٧٠) .

وفي عهد سعيد باشا (١٨١٣ـ١٨١٦) يذكـــر بكنكهـام "Buckingham" ان قوة الباشا تتالف من حوالي الفي فارس متباينين في خيولهم وتجهيزاتهم ، ومن وحدة مدفعية ميدان صغيرة مؤلفة من عشر قطع ، وكتيبة من المشاة تصحبه عـــادة بمثابة حرسه الخاص ولا يتجاوز تعدادها الالف رجل . وفـي استطاعة الباشا الاستعانة بالعشائر العربية وباشوات كردستان والمرتزقة الذين من السهل تجنيدهم باجور ضئيلة جدا . وهكذا يمكن في وقت قصير جمع عشرين الف او ثلاثين الف من هـذا المزيج من الجنود غير المدربين(٧١) .

وقدر هود"Heude" عدد الجيش الذي كان باستطاعة سعيد باشا ان ينزله في الميدان خلال النزاع الذي وقع بينه وبين داود باشا بحوالي اربعين الف مقاتل معظمهم انكشـــارية وقـــوات عشائرية (٧٢) .

اما بورتر "Porter" فانه يقدر جيش باشوية بغداد سنة ١٨١٨ بحوالي عشرة آلاف مقاتل . وان في استطاعة الباشـــا مضاعفة هذا العدد بالاستعانة بالعشائر العربيـــة وكركـــوك والسليمانية واربيل والمرتزقة (٧٣) .

وفي سنة ١٨٢١ كتب المنشيء البغدادي ، قائمة عن الجيش في عهد داود باشا وهي على النحو التالي :

الخيالة المرافقين للباشا	٢٠٠	فارس
غلمـان الكهيـة	٥٠٠	فارس
افوات بغـــداد	٢٠٠	فارس
بيارق اللاونـــد	١٠٠٠	فارس
الانكشـــــارية	١١٠٠	مشاة
مشاة تكريت وانكشاريتها	٥٠٠	مشاة
رجال المدفعية ورجال العربات	١٠٠	
رجال الزنبرك (نوع من المدافع)	١٠٠	
عشـائر العبيـــد	١٠٠٠	فارس
باشوات الكرد المعزولين	١٠٠٠	فارس
مشـــاة العقيـــل	١٠٠٠	راجل
العشائر المليه وطي والبيات	١٠٠٠	فارس

عشائر جبور والبو مفرج والقراغول والدليم والعنبكيـة وشمر طوقة والدفافعة والسواكن والاسلم والبو هيازع والبو طقة والرواشد والعزة وبني سعد وبني صبيح والمجمع وقشعم وزبيد والبطة والشبل وخفاجة والصـدان (ولا يمكن تحديد تعـداد القوات العشائرية) (٧٤) .

هذا قليل من كثير عن بغداد العهد العثماني كما وصفها السياح الاجانب الذين كونت مؤلفاتهم المادة الاساسية لمعرفة اوجه الحياة المختلفة التي كانت عليها بغداد .

جـ٢ ، ص ١٤٦ ، ١٤٩ . وفي الاصل الانكليزي جـ٢ ، صص ١٩٤ـ١٩٥ ، فريزر ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .

* كانت السباهية بمثابة الفرسان النظاميين في الجيـــش العثمـــاني .

(٦٨) تافرنيه ، العراق في القرن السابع عشر ، ص ٧٩ .

** يطلق عليهم « الايج اغاسي » ، وما لديه منهم في بغـداد سواء أكانوا من الخيالة أم من المشاة يقرب من ثمانمئـة رجـــل .

(٦٩) رحلة نيبور الى العراق في القرن الثـــامن عشـــر ، صص ٦٩ـ٧١ .

(٧٠) Dupre, op. cit. I. p. 162.

(٧١) بكنكهام ، رحلتي الى العراق ، جـ١ ، صص ٢٠٣ـ٢٠٤ . وفي الاصل الانكليزي جـ٢ ، صص ١٩٩ـ٢٠١ .

(٧٢) Heude, op. cit. p. 185.

(٧٣) Porter, op. cit. II. p. 253

(٧٤) رحلة المنشيء البغدادي ، صص ٣٣ـ٣٥ .